البطريركيّة الانطاكيّة

بين الاتحاد والانفصال

بقلم الاب اثناسيوس حاج قب
رئيس المدرسة الشرقية في زحلة

٢ (تتمة)

عصر الاضطراب (١٧٢٤–١٨٣١)

ان سلفستروس بما نال من البراءات بدأ يضطهد كيرلس واساقفته وجميع المنتمين اليه فهرب كيرلس الى قرب دير المخلص[1] . اما كاثوليك حلب والشام فقد اظهروا ثباتاً وايماناً عظيمين. وقد ابدى الرهبان الحلباويون والمخلصيون غيرة عظيمة في الدفاع عن الكثلكة ، وتثبيت الكاثوليكيين في مدة الاضطهاد . وبفضلهم بقيت الكثلكة مزدهرة خصوصاً في حوران والشام وحلب ولبنان.

ولم تتسرع رومة بتثبيت كيرلس نظرًا لما ادخل من التغييرات الطقسية[2] هو وافتيموس الصيفي . غير انها لما انست منه الاستعداد لارجاع الطقوس الى حالها ارسلت له سنة ١٧٣٠ التثبيت الاحتفالي . ثم البالليوم سنة ١٧٤٤

ولما شعر كيرلس بقرب اجله سمى له خليفة نسيبه اثناسيوس جوهر سنة ١٧٥٩، فاحتج بعض الاساقفة على هذه التسمية. ولذلك ابطلت رومية بطريركية جوهر . وسمت عوضه مكسيموس حكيم ، مطران حلب ، سنة ١٧٦٠ . فلم يرضخ جوهر لهذا الحكم ، فوشقته رومة بالحرم. وعلى اثر ذلك مات مكسيموس حكيم فانتخب الاساقفة المقاومون لجوهر اثناسيوس دهان ، مطران بيروت ، وسموه ثيودوسيوس الخامس سنة ١٧٦١ . واخذ جوهر يعمل على منازعة

---

١) ان سجل الرهبنة الحلبية يذكر هذا الاضطهاد الذي حدث في حلب والشام وامتد الى جبلك وغيرها.

٢) يأنف بعض الارثوذكس من الاتحاد برومة بدعوى انها تريد ان تُلبّن الشرقيين. فتصرّف رومة مع كيرلس وغيره دليل على شدة حرصها على تقاليدنا وطقوسنا.

البطريركية لدهان ، فجددت رومة حرمه الى ان رضخ سنة ١٧٦٨ . ولم يرتق الى البطريركية الا بعد موت ثيودوسيوس ، فانتخب اذ ذاك قانونياً ، وبقي بطريركاً حتى وفاته سنة ١٧٩٤ .

والى بعده كيرلس سياج ، ثم اغابيوس مطر ، ثم اغناطيوس صروف ، ثم اثناسيوس مطر ، ثم مكاريوس الطويل ، ثم اغناطيوس قطان الذي استلم زمام البطريركية من سنة ١٨١٦ حتى سنة ١٨٣٣ . ففي بطريركية قطان اشتد الاضطهاد جداً على الكاثوليكيين ، وخصوصاً في حلب والشام فقد استشهد سنة ١٨١٧ تسعة ، منهم واحد ماروني حُسب غلطاً انه ملكي كاثوليكي . واستولى اعداء الاتحاد على ما كان يملك الكاثوليك . الا ان هذا الاضطهاد قد زاد الكاثوليك اعتصاماً بايمانهم ، واضطر بعضهم ان يهاجروا الى لبنان او مرسيلية وغيرها . وفي الشام بدأ الاضطهاد سنة ١٨١٩ ، وبقي محتدماً حتى سنة ١٨٣١[1] . كل ذلك كان بمكيدة الاكليروس اليوناني الذي كان يبغض الاكليروس الغربي ، ويرى سيطرته يتقلص ظلها شيئاً فشيئاً عن بطريركية انطاكية[2] .

تحرير البطريركية الانطاكية الكاثوليكية وازدهارها

بعد موت قطان ارتقى الى البطريركية مكسيموس مظلوم . فكان بطريركاً ذكياً كثير الحزم جريئاً مهيباً ، حرّر الطائفة من ولاية البطريرك الارمني المدنية ، ونال براءة سلطانية تخوّله الولاية المدنية على بطريركيته الانطاكية والاورشليمية والاسكندرية . ولما كان الاكليروس اليوناني الارثوذكسي يزعم ان لا حق للكهنة الكاثوليكيين بلبس الملابس المعروفة ، وخصوصاً القلنسوة ، قام بين الفئتين عراك طويل من سنة ١٨٣٨ حتى سنة ١٨٤٨ ابدى فيه مكسيموس ثباتاً ودهاء كبيرين .

ان هذا البطريرك قد ردّ بقوة برهانه وغيرته عدداً كبيراً من الارثوذكس ،

---

١) انظر تفاصيله في مجلة «صدى الشرق» الافرنسية سنة ١٩٠٢ ص ١١٢ و ١٦٨ .

٢) ان الاكليروس اليوناني بما زرعه في العقول من الاوهام وفي القلوب من الضغائن قد حال دون تفاهم مؤمني الكرسي الانطاكي واخواتهم الغربيين وأخّر اتحادهم اجيالاً طويلة .

فبلغ عدد طائفته ٧٠,٠٠٠ وافتتح من جديد مدرسة عين تراز لاعداد كهنة علمانيين يساعدون الرهبان في خدمة النفوس ويقومون مقام الكهنة المزوّجين . وقد حمى الطائفة من سمّ التعاليم البروتستانية بمواعظه ورسائله القيّمة ، وقاوم شديداً اخوية المتعبدات الحلبية التي اسستها الراهبة هندية . واخيراً مات عن بطريركية واسعة يرئسها ثلاثة عشر اسقفاً .

وخلفه سنة ١٨٥٦ اكليمنضوس بجوث الذي امر باتباع الحساب الغريغوري سنة ١٨٥٧ ، قبل ان يهيّ الافكار لقبول هذا الامر . فانتهز الفرصة مطران بيروت الذي كانت رومة قد رفضت ترشيحه للبطريركية ، واخذ يقاوم سرّاً ، كما ان كاهناً في الشام وآخر في الاسكندرية عصيا واعلنا الشقاق في كنيستيهما . فحدث اضطراب في الطائفة ، وترك الكثلكة عدد منها فانضموا الى الارثوذكسية . فهال هذا الامر البطريرك فاستقال وانزوى في دير المخلص . ولكن الحبر الاعظم لم يقبل باستعفائه بل حرم المجمع الذي اقامه مطران بيروت للائتمار على البطريرك . وطلب من هذا ان يعمل على ارسال المطران المذكور الى رومة . غير ان مذبحة سنة الستين حالت دون ذلك . وكان لروسية في ذلك الوقت نفوذ كبير في سورية ، فعضدت الارثوذكسية واحيت شأنها . وهذا ما جعل عدداً من المنفصلين يبقون مصرّين على خروجهم من الكنيسة الرومانية ، بينما الآخرون كانوا يعودون الى حضنها شيئاً فشيئاً .

اخيراً رضي الحبر الاعظم باستقالة بجوث سنة ١٨٦٤ ، فقام بدلاً منه غريغوريوس يوسف وهو من اشهر بطاركة القرن التاسع عشر . هذا عمل على تهدئة الخواطر وارجاع المياه الى مجاريها . وقد امكنه بمساعدة الابوين برنيه اليسوعي وفلابيانوس كفوري الحنّاوي (مطران بيروت السابق) ان يحيي ابرشية طرابلس ويرفع لواء الكثلكة فيها . وكان قد اظهر في المجمع الفاتيكاني صعوبة بقبول اقتراح تحديد سلطة الحبر الاعظم . الا انه بعد ان عاد الى لبنان ووصلته تحديدات المجمع المقدّس اظهر كل الرضوخ . ومات سنة ١٨٩٧ .

ومن ذلك الحين اخذت البطريركية الانطاكية الكاثوليكية تسير الى الامام مزدهرة سنة فسنة ، موثقة عرى اتحادها بالكرسي الروماني ، ومجتذبة

اليها في انحاء شتى عدداً وافراً من اخواننا الارثوذكسيين.

البطريركية الانطاكية الارثوذكسية من سنة ١٧٢٤ الى ايامنا

لقد رأينا ان المجمع القسطنطيني الارثوذكسي رقى سنة ١٧٢٤ سلفستروس اليوناني الى الرتبة البطريركية ليكون خلفاً لاثناسيوس الثالث، وانه ارفقه بالبراءات الشاهانية والاوامر بحط كيرلس الكاثوليكي، واضطهاد اتباعه. فهذا الدخيل الذي صرف همه في العمل على ملاشاة الكثلكة بقي بطريركاً نحو اثنتين واربعين سنة قضى معظمها بعيداً عن بطريركية انطاكية بسبب المقاومة التي اثارها عليه باضطهاداته للكاثوليكيين. ولقد أضر جداً بالبطريركية الانطاكية بما زرع من النفور والضغائن في قلوب الكاثوليكيين والارثوذكسيين معاً. وكان موته سنة ١٧٦٦.

واقام بطريرك القسطنطينية خلفاً له مطران حلب، فيليمون القسطنطيني، الذي لم يلبث ان مات في السنة التالية سنة ١٧٦٧، بعد ان سمى خلفاً له دانيال اليوناني، وناشد بطريرك القسطنطينية ان يرضى به، ولا يدع الاكليروس الوطني يتسنم عرش البطريركية.

بعد ان قضى دانيال مدة غير قليلة في البطريركية استقال منها. فسمى البطريرك القسطنطيني خلفاً له افتيميوس القبرصي. وبعد موت هذا سنة ١٨١٣ اقيم مقامه سارافيم القسطنطيني الذي اثار اضطهاداً كبيراً على الكاثوليك، مضاعفاً بذلك اسباب النفور والتباعد بين الطائفتين الشقيقتين.

وقد خلف هذا مطوديوس مطران انكره الذي مات سنة ١٨٥٠. فاقامت القسطنطينية بدلاً منه ايارونايوس اليوناني، مطران بيروت، ولم يكن هذا بافضل ممن سبقوه من اليونان. فتقهقرت الارثوذكسية في ايامه كثيراً ووصلت الى حال يرثى لها مادياً وادبياً ودينياً.

وعند موته سنة ١٨٨٥ كانت الطائفة قد سئمت من اليونان وسوء سياستهم وسيرتهم، وبنوع خاص من سيرة البطريرك الاخير، فحاولوا تنصيب بطريرك وطني. غير ان القسطنطينية احبطت مساعيهم، وسمت خليفة للمتوفى جراسيموس

اليوناني الذي طمحت ابصاره بعد مدة الى الكرسي الاورشليمي ، فنازع عليها بطريركها ، وفاز ببغيته سنة ١٨٩١ . فسافر الى مقره الجديد بعد ان ترك على الكرسي الانطاكي سبيريدون اليوناني.

وكانت روسية تحاول اذ ذاك مدّ سيطرتها على فلسطين وسورية . فاخذت تشيّد فيها المدارس والكنائس ، وتعمل على هدم نفوذ الاكليروس اليوناني ونشر مساوئه بين الشعب ، فاكتسبت بكل ذلك ثقة الارثوذكسيين.

ولما قام الشعب يطالب البطريرك اليوناني باقامة مستشفيات ومدارس لرعاياه ، وكان البطريرك قد اعلن عجزه عن ذلك بسبب الديون المتراكمة عليه ، تقدمت الجمعية الروسية للقيام بكل ذلك على نفقتها ، بشرط ان تكون الادارة في يدها ، فقبل اقتراحها . غير ان اعداء البطريرك وشوا به لدى الدولة العثمانية بانه خائن لها وصديق لروسية . اخيراً حطه الاساقفة عن كرسيه سنة ١٨٩٨ ، واقيم نائباً عنه جرمانوس اليوناني . ومن ثمّ اجتهد الاساقفة الوطنيون في تنصيب بطريرك منهم . فلما اجتمع الاساقفة في الشام ، وكان عدد الوطنيين منهم ثمانية ، واليونانيين اربعة ، دارت المناقشة حول مسئلة جواز انتخاب بطريرك وطني ، واشتد الجدال بين الفريقين . وفي اليوم التالي نزلوا الى الكنيسة لاقامة حفلة الآلام المقدسة فبدأ النائب البطريركي الصلاة باليونانية . فاجابه احد الاساقفة مقاطعاً اياه باللغة العربية . مما ادى الى بلبلة وخصام وسط الكنيسة ، وتدخل الشرطة لدرء الشرور . وبعد ذلك اجتمع الاساقفة الوطنيون وحطوا جرمانوس واقاموا ملاتيوس الدوماني بطريركاً سنة ١٨٩٩ ، غير عابئين بالبطريرك القسطنطيني . وفوق ذلك فان البطريرك الجديد لم يلبث ان اقام ، عوض اليونان ، اساقفة وطنيين تاركاً القسطنطينية وشأنها ليخطب صداقة روسية . وهكذا تلاشت سيطرة اليونان في البطريركية الانطاكية.

وبعد ان خلت الارثوذكسية نير الاكليروس اليوناني الذي استأثر بالمراتب ما ينيف على ١٥٠ سنة تاركاً الاكليروس الوطني في حالة الفقر والجهل ، تسنى لها زماناً يسيراً ان تجدد حياتها بمساعدة روسية . غير ان سقوط هذه الاخيرة جعلها بلا مرجع ولا عضد ، وقطع كل امل في تقدمها . ولاسيما وان ديورتها

اصبحت مقفرة يكاد البوم ينعق فيها ، واكليروسها العلماني لا يتسنى لاكثره اقتباس العلوم الكافية للقيام بواجبه العظيم في هذه الايام.

واما الشعب فيمكننا ان نقسمه الى ثلاث فئات : فئة المحافظين على الطقوس والعوائد القديمة . وهؤلاء لا يزالون على جانب من التقوى والتدين . الا ان الاوهام التي علقت باذهانهم ضدّ الباباوية ، وقد اورثهم اياها تعصب الاكليروس اليوناني ، تجعلهم متعصبين في ارثوذكسيتهم بعيدين عن الاتحاد . والفئة الثانية تتألف من الشبيبة العصرية المتخرجة في المدارس الانجيلية او العلمانية . وهي لا تحفظ من الارثوذكسية الا الاسم فقط . واما مبادئها فهي مبادئ بروتستانية او عقلية محضة . واما الفئة الثالثة فهي تتألف من ارتئك الرجال المفكرين المتنورين الذين قابلوا بين الكنيستين واكليروسيهما وحاليها وتأملوا بنوع خاصّ في حال البطريركية الارثوذكسية في هذه الايام الاخيرة . فرأوا ان لا بد من الاتحاد بالكرسي الروماني ليؤلفوا مع اخوتهم الكاثوليك طائفة واحدة قوية عزيزة الجانب رفيعة الشأن.

وعليه فانجاز لنا ان نتساءل عن مصير الارثوذكسية في البطريركية الانطاكية اذا ما بقي رؤساؤها مصرين على مقاطعة رومة ، ناظرين الى الباباوية كما الى شبح مخيف ، امكننا القول ان جزءا منها صائر لا محالة (عاجلًا او آجلًا) الى البروتستانية . وجزء آخر نحو رومة عارفاً انها ميناء السلام . فيا حبذا لو كان رؤساء الطائفة الشقيقة يعتبرون حقيقة الخطر البروتستاني وسهولة الاتحاد الروماني وضرورته الحيوية . ويا حبذا لو كان قادة الافكار يضاعفون الجهود لتحقيق الاتحاد الذي يحنّ اليه الجميع كاثوليكيين كانوا ام ارثوذكسيين . اذن لكان الاتحاد يتم ، وقد اصبح على قيد الذراع ، ولكانت الكنيسة الشرقية تعود الى ما كان لها من العز في سالف الايام ، ايام كانت تسطع في سمائها فضيلة القديسين العظام وانوار علم ملافنتها الاعلام ، ذلك العصر الذهبي عصر الوحدة والوئام . فسلام على تلك الايام ويا حبذا العودة الى الوحدة ، فالوحدة مبدأ القوة والسلام ، والعود اليها احمد اذ لا بد من اتحاد الاعضاء برأس الكنيسة ليفوزوا بطيب الحياة وحسن الختام.